الرقصة لم تتم(*)

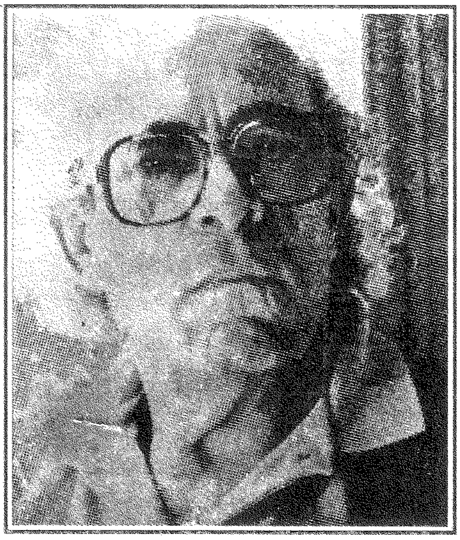

إدوار الخراط

I

كان حسه بالفقدان الذي لا يعوّض، عميقاً.

قال: الحياة ذهبت.

عادت إليه فجأة رائحة الجولكس واجن القديمة، من أولى سنوات السبعينيات. رائحة فيها أثارةٌ من اللبن الطازج، والمنّى، والبنزين، وعطر «لافام» الذي يعرفه من «رامة».

قال: رائحة الخصوبة، رائحة الدينامية، رائحة لن تعود أبداً.

قال: وليكن، لن تعود. ما الذي يعود قط؟ أية أهمية لهذا كلّه؟

كانت هي التي تقود الجولكس واجن، كالمعتاد، تصعد الربوة العريضة المسفلتة، بعد أن تركا مينا هاوس بكل بذخه التاريخي المتداعي نحو تدهور فيه أناقةُ الشيخوخة وكبرياءُ آخر القرن التاسع عشر، وقد صدمهما نورُ القمر الباهر المؤلم في سطوعه القاسي.

كانا قد أخذا كاساً في الردهة الفسيحة الخاوية بالليل، وكانت السلالم القديمة تصعد من وراء القبوة المخطّطة بالبنّي والبيج - على نمط مباني الجوامع - وكان هو يعرف طعنةَ الحبّ ومتعةَ صنع الحب في غرفة علويةٍ وجانبية تطلّ نافذتها العريضة الحارّةُ على صحراء متموّجة ويلمح منها قمة الهرم الكبير المكسورة تحت سماءٍ داكنة الزرقة.

أوقفتْ «رامة» السيارة على مبعدة قليلاً، من الطريق المسفلت، على مسطّح مستوٍ من الرمال الصلبة النقيّة. ونزلا.

كانت قدماها سمراوين، في حذائها الصغير، يضغط عليهما الجلدُ الثمين الناعم، فتبرز لهما نعومةٌ مغوية، وهي تسير ببطء في الرمل، الجيبة القصيرة الواسعة تتموج فوق فخذيها الكبيرتين.

قال: - احبسُ طوفان الشوق والحب، احجزُ امواجه العارمة التي تهدّد بتدمير كلّ شيء لو انني اطلقتُها.

قال:

- هل إذا دفنتُها في رمال نفسي المتحرّكة تموت؟ أم تزداد شراسةُ حياتها؟

عندما وقف تحت الحجَر الهائل، ونور القمر يسقط على اضلاع الأحجار الراسخة، ونظر إلى أعلى، رأى أن السماء نفسها قد أصبحت حجراً من هذه الأحجار الألفية التي جرّدها الزمنُ عن كل توشية، وأعطاها هذا اللون الرمادي الأبيض الذي هو لونُ السماء نفسها في هذه الليلة، هو لون نفْسِهِ الداخلية في توقه إلى الأنوثة المحبوسة إلى جانبه، بكل ما تحمل في طوايها من احتشادٍ وحنانٍ مكتوم.

الصخور الضخمة قد فقدت حوافّها بين النور المشعشَع وغواية الظل الشاحب كأنها ذابت، وهي مع ذلك بكل صلابتها، هل أحجار السماء ناعمة ولا يهزّها شيء أبداً؟

حَجَرُ الحب رازحٌ وساطعُ الظلام.

بعد نصف الليل، في تلك الأيام لم يكن ثمّ حَرَسٌ ولا عساكرُ بوليس ولا وجود حتى لأولئك الحمّالين والجمّالين والخيّالين الذين ينكّدون عليك بإلحاحهم الثقيل «وانْ باوند» «مستر» «أن ليجر مسيو». كانت الحضراء الأبدية نقية، وكأنها مِلْك لهما، كأنها هبة لا يمكن رفضها، ولكنّ قبولها

(*) الفصل الأول من رواية يقين العَطَش قَيْد الكتابة

فوق طاقة الاحتمال.

كانت الأرضُ تحتهما صخرية، وقِطَعُ الجرانيت الصغيرة متناثرة عليها صغيرة وكبيرة ناتئة الحوافّ أو مشطوفة نعّمتها السنوات. وجدا بقعة رملية ناعمة - جزيرةً لا زَمَن فيها وسط شظايا الزمن - وأحسّ دفء الرمل تحت قدميه.

دون كلام، ودون تمهيد كان ما جرى أمامه لا يُصدَّق، وله سطوة الحلم وخِفّته، مما لا يُناقَش ولا محلّ لإنكاره.

لم تكن تتكلّم، على غير عادتها، كانت صامتة.

كانت قد قالت له: عندي مشكلة معك. أنت لا تتكلم، ولا تقول ولا تُفضي بما يهجس في خاطرك. ومن ثَمّ يحدث انقطاع، ويأتي هذا التوتر، والإخفاق، وتظلّ أنت لا تقول. تظلّ مدةً طويلة حتى تفكّ، وتتكلم. وكما ترى ينحلّ كل شيء، ويبدو طبيعيّاً وبسيطاً ولا تعقيد فيه، وليس هناك وراءه أسرار أو مخبآت.

أمّا هي الآن، فقد كانت صامتة.

ولم يكن هناك انقطاع.

قالت له: هل تريد أن تراني في كل فستان؟

قال بلهفة: نعم، نعم.

كانت قد فتحتْ خزانة ثيابها، ذات المرايا الكثيرة المتكسّرة الأضلاع التي تبرق وتعكس ألفَ صورة لجسميهما، ورأى ثروة فساتينها المكدّسة المعلّقة، كلّها أنيقة وغالية وجميلة الذوق، وضعتْ ملابسَه القليلة بين فساتينها، وقمصانه التي نسي أحدها عند سَفَره من عندها، وقال: «لكي أعود، وأخذه، هذا فألٌ حسن». ولكنه لم يعد قط، لأنه لا شيء يعود قطّ.

خلعت «رامة» حذاءَها أولاً وكما تفعل قبل أن تغوص في السرير، قبل الحب، نَضَتْ عنها بلوزتها الخفيفة، وفكّت مشبك السوتيان البيج الذي يحتضن نهديها وخرجت من الجيبة بساق عبلةٍ ومسبوكة ولكن خفيفة الوقع، ثم بالساق الأخرى في لمح البصر، وانحنت بسرعة، فإذا جسمها الرقراقُ البضّ الممتلئ تحت القمر، وإذا هي تتموّج - كأنّها ليست على الأرض - بحركاتٍ بطيئة منسابة، ذراعاها المدملجتان مرفوعتان إلى حَجَر القمر الذي بدا كأنه يهبط إليها، قرصُه الكبير مخضّب باحمرار أصهب مُسكر، كأنه يستجيب لدعائها، ونهداها يهتزان بموسيقيةٍ ساجية تحلّل لها جسمُه، ولم يعد ثَمّ شيء من هذا العالم.

كان وجهها المدوّر القمحيّ مرفوعاً إلى أعلى، شعرها الغزير الوَحْف الهنديّ قد انفكّ عراه وانسدل على ظهرها الشامخ اللدان، وكأنما تهبّ منه نفحاتٌ حرّيفةٌ لاذعةٌ ومُسكِرة طالما نشق نفثَها في حُمَيّا شهوته.

كأنما وجهها كله عينان نجلاوان فسيحتان، رقرقةُ الخضرة فيهما - في لبن القمر - تضربُ قلبَه كأمواج بحرٍ لا شاطئ له ولا قرار.

قال لها: هل تذكرين كيف كنت تخرجين بالليل، رأيتك تعبرين كوبري أبو علاء وحدك، الجولكس واجن القديمة، رامة، عمّ كنت تبحثين؟ مَنْ كنت تطلبين؟

قالت له، وفي صوتها رنّةٌ من صرامةٍ خفيفة، وتصميم: لا، لا أذكر.

كانت الصقورُ بخطوطها الحادّة ترقص معها، والثعابين القائمة في تلوياتٍ هندسية متكرّرة ونمطية. طيور أبيس مفرودة الجناح تُبحر في ثُبَجَ نيلٍ غير مرئي، أشرعتُها بيضاء، وأقواسٌ كأنّها كثبان الرمل التي لن تقوى الدهور على تغيير انحناءات سطوحها النمطية، ولم يكن في الحركات الهيروغليفية أدنى ابتذال، كانت جسدانيّتها كاملة وقداستها كاملة.

قال:

- ها هو ذا جسمها بكل انتصاباته وتهدّلاته يعود إليّ في هذه الرؤيا تحت سفح السماء، رخيّاً ومشدوداً، صلباً ولدناً، منساباً وكأنه ثابت إلى الأبد.

جسدك ريشة مَعْت العادلة بين مثقالي الجسد والروح.

لحْم الجرانيت الورديّ معبدٌ قدسيٌّ منتهك ومحرّر مصونٌ، يقف في وجه الشمس عند الشروق، ولا يأتيه المغيب.

الجعارين الحيّة في طوايا السرّ المعجونة بشهوةٍ لا تنطفئ.

قال:

- ما زال حضُورك الغنيُّ الخصيب يضمّخ حياتي. وجهك الناعم أحسّه - ما زلت - تحت شفتيّ، كنوز جسمك التي تتجلّى لي الآن في هذا النور القاسي، ما زلت أحيطها بين يدي، وأعركها، في عينيّ ضوء وجودك وحده، كافٍ، لا شيء آخر.

قال:

- ما أشدّ جفاف كلماتي - وأنا صامت - إذا ما تذكّرتُ حرارة جسمك في حضني، ودفء نظرتك.

تذكّرت؟

وهل أستطيع أن أنسى؟

هل زهر اللوتس اليانع في عينيها أم في وهم نور القمر؟

توابيت الملوك القدامى معمورة زاهرة ليس للموت سطوة

على جسدك، نهداك يتحديان الدُّثور في قلب خضرة الفيضان الذي لم يعد يأتي. هل رقصتكِ إيزيسس هذه الأيام تحرّر النيل الأسير؟

وميضُ الشعاليل القديمة يترقرق على حنايا الجسد الصحراويّ الناعم وربوات النَّبْت الأثيث.

يا بنت خونسو - بَشْنْس طارد الشياطين أم ملاذها ومثواها؟ يا عابرة الليل في صلابة مسيرتك التي لا تَحُول.

قالت له: يا حبيبي، أنا سعيدة أنك جئت، سعيدة قبل ذلك لأنك توجَد، ولأنني التقيت بك.

ثم ابتعدتْ عنه، في خُطَى رقصها المجنّح. وعندئذٍ سَمِعَها تناجي: خونسو، هل أنا جاريتك الوامِقة أم سيدة أمجادك؟

انفتحت الأبوابُ الثقيلة، وانطلق منها الصقرُ الهائل الجناحين بريشهِ الذهبيّ الذي يلمع ويرتعد تحت هبّات نسيم الليل المضيء، وطار بعيداً يخترق تلك السماء التي كانت تلوح له مسدودة.

صعدت رامة على صخور الهرم الهائلة، قدماها الغضّتان لا تكادان تمسّان خشونة الحجَر الأبيض، وغاصت تلك الفتحة التي صنعها رجالُ الخليفة المأمون.

كانت الشموعُ موقدةً، صغيرةَ الشعلة لكنها ثابتة الوهج على جانبي المرقَى الصعب وقد بدا كأنّه يتّسع امام البالية الفرديّ الذي تَخُطّه وتخطو على إيقاعاته المتنوعة، خافتةً ومجلجلةً، ودائماً فَرِحة.

هل وصت رامة في رقصتها إلى القاعة الملكية؟

قال إنّها لم ترجع قط.

قال إن الرقصة لم تتم.

قال إنه انتظرها طول الليل، والليلُ لم ينقضِ بعد، الليل مظلم ليس فيه قمر.

قال إنه يموت، وهو عطشان، ولن يرتوي ابداً.

كانت هي التي تدير عجلة القيادة، بيد واحدة، ذراعها الممتلئة مرتكنة على النافذة، زادت بضاضتها بحركة الاستناد إلى حافة النافذة. رائحة الفولكس فاجن قد خفّت قليلاً، بانسكاب هواء الصبح السخن البليل إلى الداخل. أم هل كان ذلك في المساء، وكان اندفاعُ الهواء الآتي من النيل إلى يسارها، وهما متّجهان، عبر شارع نوال، إلى ذلك الميدان الصغير الذي تنشعب عنه، في وسط «العجوزة» عدةُ طرق مظلّلة الآن بأشجار البانسيانا المشتعلة بزهرها الأحمر وبنور مصابيح الشوارع المنصبّ على الأجمات الكثّة من الفروع الصلبة الأثيثة الورق؟

هاأنذا انقض ما غزلتُ، وانفي ما أثْبَتُّ.

لكنه يظل قائماً، في وجه كل نقض، وكل نفي، لا يزول.

II

بعد أن ملأت خزّانَ السيارة بالبنزين من المحطة التي بعد مستشفى العجوزة، وابتسم لها العامل ابتسامةً عريضة، وهو يسلّمها المفاتيح: «تفضّلي يا ست الكلّ» قالت له عندئذٍ:

كل الناس تحب المحبّين.

كان حبهما يانعاً غضّاً، لم يكد يعترف بنفسه.

كان قد طلب إليها أن توصله إلى شقّة في العجوزة، لم يقل لها إنه يودِّع صديقه الرسّام احمد قنديل. فوجئت به يقول لها: «هنا، انزلْ هنا من فضلك، أراك على خير»، ويأخذ يدها بحركة أشبه باندفاعة اختطاف صغيرة، فيقبّلها بسرعة، في دروة الشجر والليل، ويترك يدها فتسقط بصدمة جسدية خفيفة على وركها من تحت الفستان الحريري.

خطر له بعد ذلك بسنين انها - ربّما - صدمتْ، احبطت شيئاً ما، فلعلها كانت تنتظر منه - في أوائل أيام حبهما - أن يذهبا معاً - وحده - إلى شقة في العجوزة، إلى لقاء غرام لم يحدث عندئذٍ قط.

أم أنها كانت تنتظر ذلك، بالفعل؟

أكانت براءته - سذاجته - عندئذٍ مما لا يخطر على بالها؟ هل كانت هذه البراءة هي التي اغوتها منه إلى حدٍّ ما؟ لا داعي أن نقول البكارة، ومع ذلك فقد كانت بالفعل بكارة منه، بمعنى ما.

كان - وما زال - حبّاً غريباً، غير مفهوم.

حبّاً لم يكن ضرورياً أن يناجيه بمثل ما فعل رصيفه الهذليّ القديم، أن يزيده - هذا الحب - جوى كل ليلة، ولا كان ضرورياً أن يهتف بسلوة الأيام أنّ موعدها الحسرة، فلا سلوى حتى عندئذٍ، ولا سكون الدهرَ للقلب الجيّاش المتقلّب بالحب الكتوم الذي لا يستنيم بعد مرور الأيام، وبعد أن ذهبت الحياة.

ذلك مما يدهشه قليلاً.

عاد إليه مشهدُ عشق جاء بعد ذلك بكثير، كأنما تعويضاً وتجريداً له من براءةٍ، أو بكارةٍ معيّنة، وكأنما كانت ممارسة العشق حنكة وصنعة، أليست هي كذلك دائماً بالفعل، على غير ما يخيّل إليه من انها إلهامٌ، أو فطرة روحية، أو اشتياقٌ

الجسد إلى الفناء. أليست تلك خيالات منه، وحمقاء قليلاً؟

قالت له: أنت لا تتكلم أيضاً. قلّ لي، أقوى؟ أبطأ؟ أكثر ضغطاً؟ هل أنا قريبة منك أوثق مما تريد؟ أم أبعد قليلاً؟ قل لي كيف، ماذا تريد، أنا طوعك.

قالت: أنا أستمتع، بمداعبتك. هل لديك مانع أن تداعبني أنت أيضاً؟

كأنما في سؤالها نفسه دعابة، أو دهوة مغلّفة بسخرية طفيفة حسنة النية.

كم من خبرات. كم من رجال. كم من أهواء العاشق وغرائب أوضاعها وتنويعات موسيقات الحب. كم؟ يظلّ يسأل - في غير ما ضرورة الآن، وفي غير ما جدوى، وبلا قيمة حقيقية على أي حال - يطوف به أحياناً أن تلك أيضاً من شطحات خيالاتها، وأن قصص وحكايات غرامياتها ليست إلا فانتازيات، لماذا كانت تحكيها له؟ أكان ذلك من براهين حبّها الذي يختلف - في تصويرها - عن كل ما عرفت هي من قبل؟ أكان ذلك منحة ولاء وذبيحة قربان، مثلاً؟ أم كان استفزازاً، على نحوٍ ما، وتأليباً وتهييجاً لانفعالٍ فوّار ليس بحاجة إلى تحفيز أو تأريث؟

حكت له أنها سافرت في بعثة حكومية إلى نيويورك، لحصر آثارنا في المتروبول، ومتحف بروكلين، تمهيداً للمطالبة بإعادة ما يثبت سرقته من البلد أو تهريبه، أو وصوله بطريق غير مشروع.

انتهى ذلك كلّه إلى لا شيء بالطبع، لم تستطع الوزارة أن تطالب الأميريكان بشيء.

قالت إن رئيس البعثة كان رجلاً في السنّ التي تشارف فيها الرجولةُ على آخر اندفاعاتها. دون كيشوت، على نحوٍ ما، كهلٌ يتشبّث بما بقي له من فتوة. قالت إنه لاحقها طول الوقت برعايته الغزلة قليلاً، وقربه الجسدي الذي يوشك أحياناً أن يكون مقتحماً.

قالت إنها كانت في فندق تيودور الذي حجزته الوزارة للبعثة كلّها، كانت حرارة نيويورك قابضة ورطبة، والتكييف يخبط جدار غرفة الفندق بصدمات خافتة رتيبة، لا يبعث على راحة بقدر ما يشيع الملل، عندما انفتح باب غرفتها، ودخل الرجل.

كان هو يعرف أنها تترك دائماً باب غرفتها غير موصد، ما دامت وحدها، حتى في نيويورك، ورغم كل التحذيرات والتوجيهات للأمان والتحوّط من اللصوص.

قالت له: لا تحاول. لن أقول لك اسمه. ليس هذا مهمّاً في النهاية.

قالت له: كان واضحاً منذ اللحظة الأول أنه سكران.. عند تلك الدرجة من السكر التي لا يفقد فيها الواحد صوابه تماماً، ولكنه لا يتحكّم في نوازعه، ولا يستطيع أن يقاوم انطلاق المكبوب.

قالت: كنت في قميص نومي. لم يكن عندي وقت أضع فيه الروب عليّ.

نهضت نصف جالسة على السرير لكنه وصل إليها قبل أن تقوم، وجلس، بصوت هدّءٍ طفيفة، بجوارها، ومدّ ذراعه يحيط كتفيها ولم يكد يجلس. رفعت يده برفق، دون أن تصدمه بحركة مفاجئة لا تعرف عقباها في حالته.

قال بصوت الضياع والإلحاح الذي يأتي في السكر: أريدك. أريدك يا رامة. أموت فيك، أنتِ جنّنتيني.

قالت له: كان من السكر في حالة تسمح له أن يمضي إلى النهاية في عملية اغتصاب، بالعنف، لو أنني قاومته بعنف. وقدّرت أن السكر أعطاه قوة جسدية لم أكن أملك معها أن أمنعه بمجرد القوة.

قالت له: أشكرك، صحيح. وأنا مقدّرة لشعورك، ولكني أنا لا أريدك، الآن على الأقلّ، دعنا نفترق على هذا، دعني أستوعب الموقف أولاً، طيّب، ونترك الحكاية الآن، مؤقّتاً. من يدري ماذا سوف يحدث بعد ذلك؟ كل شيء ممكن، أليس كذلك؟

قالت: حاولتُ أن أُثنيه عن عزمه بالحجة، والعقل، والهداوة. كان واضحاً أنه لا يسمع حتى كانت تحكي له القصة بالإنجليزية، كما لو كان صعباً عليها أن تقولها باللغة التي يعرفان الحب بها، لغة الجسد، لغة طفولة الجسد.

قالت: اشتدّ عنفه قليلاً، وازدادت حركته هوجاً، وتصميماً في الوقت نفسه، أوشك الموقف أن يصل إلى نقطة الحرج. وعندئذٍ سطع في ذهني مرّة واحدة ماذا يجب أن أفعل. وقرّرت.

خلعت قميص نومي بحركة واحدة، عارية تماماً، وتمدّدت على السرير، بلا حراك. قلت بصوت بارد، محايد، لا هو معادٍ ولا فيه أدنى رجاء أو تضرّع: «هأنذا عارية تماماً. تريدني؟ تريد أن تغتصبني؟ طيّب، تفضّل. لن أقاوم. لن أتحرك. سأنام، كما أنا، كالجثة، كالميتة، وأتركك تفعل ما تريد. أهذا ما تريد؟ لن أقول كلمة. لن يندّ عني صوت، ولا حركة. ميتة أمامك. تفضّل إذن».

قالت إنه أفاق عندئذٍ فجأة، وارتدّ عنها، وخرج من الغرفة مندفعاً دون كلمة، دون أن ينظر إليها.

هل كانت على السرير الضيّق في الغرفة الضيّقة،

محتشدة بجسدها الفيّاض المتدفّق بنسوية عارية وعارمة، متاحة، مهدرة، وصوت التكييف يتردد دون عقل، يصطفق، وانوار نيويورك تتخايل من بعيد، وراء الزجاج السميك؟

قالت: في الغد بداتُه بالتحية، قلت له: صباح الخير. قلت له: تعــرف، أمس لم يحـــدث، لم يكن هناك أمس. سنظلّ صديقين، وزميلين في العمل، وننسى تماماً كلّ ما حدث، لأنه لم يحدث، ببساطة، أليس كذلك؟

عندها امس لم يحدث قط.

قال: احـقّاً امس لم يحـدث؟ تلك المحـبـة التي عـصـفت بروحي وجـسـدي، تلك النشـوات التي لا تُصـدَّق، نوبات الشقاء والألم الذي لا يوصف، متعات التحقّق والسكر بخمرٍ إلهيةٍ، لم تحدث؟

قال: ونحن، هل نبقى صديقيْن، فقط؟ أممكن هذا؟ حتى بعد انقضاء العمر؟

قال: اليس هذا ما رفضته دائماً، وارفضه؟

فهل هو كل ما يبقى؟

أم هل بقي، حتى.

كـانا يفطران في إحـدى رحـلاتهـمـا للتـفـتـيش في الإسكندرية، كـان مطعم «الأيريش كـوتاج» القـديم، قـبل تجديده، فسيحاً وخاوياً في الشتاء، لوحات احمد صبري الزيتية بمسطّحاتها الزرقاء الخضراء الشاسعة وضربات الفرشـاة الحـمـراء الداكنة توحي بعـالم آخـر. صـرخـات النورس تأتي فجـأة من النافذة المفتوحة على هواء صبـاح منعش مشبع بأشعة شمس يانعة الدفء، محمّلاً بملح البحر وطعم اليود تتفتّح له حنايا الصدر.

قالت: هل افطرنا معـاً، اول مرّة، في سيسيل؟ هل نزلنا سـلالم دائرية ووصلنا إلى ذلك المطعم الذي فـيـه مـاكنات فعالة لها وشيش، وأوانٍ زجاجية ضخمة مستديرة سميكة الجدران تتقلّب فـيـهـا عصـائر ملوّنة، البرتقـال والليـمـون والسحلب الأبيض الكثيف، لها بقبقة وفقاقيع بفعل تيارات داخلية تولدها أنابيب كهربية خفيّة؟

أما هو فقد قال إن السلالم التحتية المفروشة بالسجاد الأحمر كانت تفضي إلى قبو هادئ معتم الضوء قليلاً، على جدرانه البيضـاء الناصعـة نَحْتٌ بارز الموتيفات، ومشـاهد يونانية قديمة باللون الأزرق الخفيف، وكانت الستائر شفافة ومنسدلة الطيّات تتخايل وراءها نوافذ حديدية طويلة تطلّ على ما يشبه المَنْور أو الممر الضيق فيه صفائح - أو براميل - مستديرة كبيرة مغلقة.

لم يتّفقا على شيء. كانت الذاكرة مـراوغة وخوّانة. ولم يعرف إلا فيما بعد ان اول لقاء بينهما كان في شارع جانبيّ اسـمـه شـارع ابن الفـارض، سلطان العـاشـقين الذي مـات جوى إذ لم يطق الحياة بعد ان تجرّعت حبيبته الطفلة تقريباً سمّ الراهب الغريب، بدت له ميّتة، خارقة الجمال في موتها، لكنه فقدها إلى الأبد، وعندما تيقظت من سباتها كان قد قتل نفسه بخنجره، فماتت حقّاً هذه المرّة، بين ذراعيه. أهذا ما تجري به القصّة أم انه كان آخر، أمام العاشقين؟

قالت له: لا تغضب. سأسافر الآن، غصباً عني والنبيّ. حسن جداً إنّنا استطعنا ان نلتقي. وحياتك أنت، كان عندي مأمورية عاجلة اجّلتها ساعتين مخصوص من أجلك.

في الفـتـرة الأخـيـرة كـانت نادراً مـا تنطلق مـعـه - في لحظات التـلاقي الحـمـيم - على سجـيـتـهـا، تترك العنان لجسمها ان تهزّه شعشعات الحب وآلام متعته الخارقة، كما كـان يحـدث قـديماً. لم تعـد تنهج، أو تلهث من الشـهـوة والتطلّب والتحقّق، تظلّ صامتة تتركه يفعل ما يشاء، تسلم له جسـمـهـا، كأنما هي بعيدة، تتفرّج، لا ترفض، لا تنطوي على نفسـهـا، هي مـعـه، تشـاركـه لكن دون ان تتّـقـد ولَهـاً جسمانياً، ثم فجأة يحسّها تشتعل، يخيّل إليه ان ذلك يجيء على نحوٍ اليٍّ، كأنما لا تملك منه شيئاً.

قال: لا، هذا ظلم مني كالمعتاد، ليس هذا صحيحاً.

ثم قال: الارتواء الكامل هو يقين العطش.

قال: في تلك الأيام الأخيرة كانت تسلك سلوك العشيقة الصديقة الزوجة تقريباً.

قال: طبعاً، هذا من طبائع الأشياء، قال: لا، أما انا فلا اعنو لطبائع الأشياء. أريد ما اعرف انه مستحيل، البكارة كل مـرة، الجـدة، المفـاجـاة، هبّة لفـحـة الحب الذي كـأنما يكتشف ذاته على غير انتظار، اندفاعة العناق على شوق من اللهفة كانه يأتي بعد يأس الفراق.

قالت له: أنت طاغية يا حبيبي.

قال لنفسه: يا سلام يا أخي!

كانت معه، حقّاً، على سجيّتها، دون إغواء، لا تتصدّى له لكنها لا تصدّه. كان إذ يستشفّ منه هذه الألفة - كأنها أُلفة الزوجيّة - ترين عليه كآبة جسدية ويرتدّ إلى هموم قديمة، قناع الاعتياد له الف وجه، كلّها غير شائقة.

كـان يحـدثّـهـا من التليفـون العـمـومي، في شـارع ابن الفارض.

كان الصباح هادئاً، والسماء فيها سحب بيضاء قليلة، استيقظ مبكراً، ونزل فقط ليحدثّها في التليفون. لماذا لم يذهب إليها مباشرة؟ كان يعرف أنها سترحب به، أم هل

كان يعرف؟

الشارع الذي يرتفع قليلاً بانتظام فوق ربوة متصاعدة نحو القلعة، عريضٌ خاو، هل كان ذلك صباح الجمعة؟

كان الحديث متوتّراً، متقطّعاً.

تركها بالأمس، بعد منتصف الليل، قالت له: اذهب الآن، أو انزل عند الفجر، قبل الساعة الثامنة، تلاميذي الذين أعطيهم دروس اليونانية يأتون إليّ في تمام الثامنة صباحاً.

أحَسّ إنْ خطأً وإنْ صواباً، لا يعرف، انه - بشكلٍ ما - غير مرغوب فيه.

عاد إلى استراحة الآثار تحت سفح القلعة، بالليل، ولم يعرف أن ينام حقّاً.

قال لها في التليفون: «طيّب، نترك لأنفسنا إذن فرصة، لا يرى أحدنا الآخر يومين ثلاثة لغاية ما نروق، ونفكّر بهدوء.

«ردّت بهدوء وكأنّما بحسم: يومين ثلاثة ليه؟

«خلّها على طول».

«هبط قلبه، ولكنه قال بصوت يرجو أن يكون بارداً وغير متورّط: «يعني إيه؟» قالت، كأنما تستدرك، على الفور: «أعمل لك إيه؟ إذا كنت أنا طول الليل، عمليّاً، تحتك.. يعني معك.. وتقول لي الآن يومين ثلاثة، نفكّر..» قال: «أنا في الطريق إليك الآن». قالت: «هذا هو.. لماذا لم تأت من الصبح؟»

كانت الساعة التاسعة والنصف. لا تفارقه نوستالجيا الطريق إلى شارع الشعرى اليمانية، والبيت القديم الجميل الذي عرف في سعادة خرافية لا تصدّق. الطريق، محطة بعد محطة، الذي رسمه حبٌ لا يضارَع.

قال لنفسه: أنا الذي طلبتها. أنا الذي أطلبها، هل كنت مخطئاً؟ أم أن ذلك هو بالضبط دور الرجل، أن يطلب، ويطارد، ويقتفي الآثار؟ أفي ذلك طِرادٌ وقنيصة؟ أليست هنا نديّة كاملة؟ هل كانت، في الحقيقة، تقول لي «لا» تحت قناعٍ ما، أم كانت تدعوني للمبادرة؟ أكان في ذلك امتهانٌ لكرامته - كرجل - واستهانةٌ بها إلى حدٍّ ما؟

«إذهب الآن... أو انزل مبكرا، حسب ما تريد..» هل في هذا سخرية قليلة من رجولته؟ أم دعابة استفزاز لهذه الرجولة نفسها؟ أم هي فعلاً وقوف منها على قدم المساواة تلك التي يريدها منها؟ أفي الحب كرامة، أو امتهان؟ قال: نعم، نعم، فيه طبعاً، فيه كل شيء.

أيّ فرق بين ندائها، وإلحاحها، ولهفتها، زمان، في الأيام القديمة، وبين هذا الرفض الرقيق المهذّب. أولاً، كأنه ليس صدّاً ولا امتناعاً، ثم القبول الصامت، بنوع من الكرم والتسليم. أكان ذلك، حقّاً، دون حماسة؟ فعل الحب الصامت، ليس فيه كلمة إعزاز واحدة، ليس فيه صوت المحبة، ليس فيه حركة حنان.

قال: وتلومني أنا على صمتي عن الكلام، أحياناً، بينما هي تلوذ بصمت كامل بإزاء صرختي المشعوفة الملهوجة، كأنها لم تسمع إذن هتفة الجسم المتلوّي شغفاً، كأن كل ما أقول، وأفعل، شيءٌ خارجي عنها. كأنما تضع بنفسها، بيدها، عمداً، حاجزاً ثقيلاً - كأنه الهرم الكبير - محكم الأحجار.

قال: أليست هذه الصرخة متّصلة، حتى الآن؟ هل فعلت شيئاً إلا أنّني صرخت، فهل سمعتني، حقّاً؟ هل سمعني - حقاً - أحد؟

قال: لعلّني أفهم، لعلها لا تريد أن تتورط في العذاب الذي لا شأن لها به، في النهاية، الذي لن يؤدي إلى شيء. الذي هو شأني أنا وحدي.. طبعاً، ليستْ في ذلك مخطئة، ما زالت الغربة - والغرابة - قائمة.

قال: ما زلتُ غير مفهوم، وغريباً جداً، كما كنت أُحس أيام صباي الأولى، ومراهقتي المضنية.

قال: ألا يحس ذلك كلُّ أحد؟ ما الغرابة فيه؟

قال: طبعاً عندها حق. ألست أنا أيضاً أجهد في أن أضع بيني وبين كل ذلك الألم حاجزاً مصمتاً لا أريد أن أنفذ إلى وراءه، لأنني لا أطيق أن أنظر إليه الآن، ولو من بعيد؟ لأن الألم ليس رومانتيكيّاً، ليست له صفات روحية، ولا هو يسمو بالإنسان، كما يقال، ولا يحفز على شيء، إلا الحبوط. بل هو ألم، فقط. ألمٌ خامٌ نيّئٌ وقبيح. لا بدّ من نسيانه، أو استيعابه، أو تحمّله بصمت، من غير صرخات طفلية أو شبه شاعرية.

III

حكت له حكاية من ماضٍ لم يعرفها فيه - قال: «لا أعرفها في ذلك الماضي، لا أعرفها في مستقبل قد جاء». - عندما جاءتها نوبة الصمت الطويلة، والانسحاب، ورفض العالم، ورقدت على الصوفا في غرفتها المسدلة الستائر، خافتة الأنوار، لا تكاد تأكل شيئاً، لا تكاد تتكلّم بالفعل، لا تكاد تقوم لأيّ شأن من شؤون الحياة.

قالت: كان البيت خاوياً. حسن كان في المعتقل، وكنت وحدي أواجه العالم، من غير سلاح، الولد والبنت يذهبان إلى المدرسة، ويعودان، دون أن أحسّ بهما تقريباً. نعيمة كانت لهما ما يطلبان أو يحتاجان.

قالت: في ذات ليلة، بعد أن ناموا كلّهم، فعلت ما لم أكن أتخيّل قط انه سيحدث، طلبت الدكتور شريف ابن عمي بالتليفون، وسألت عنه: كيف أنت؟ ماذا تفعل؟ ثم اقفلتُ السكّة.

حكت له: قال لي شريف بعد ذلك إن صوتي كان غريباً. كأنّ يأتي من فراغ، هكذا قال، ليس فيه نأمة حرارة، كأنّه تسجيل.

قالت: ذهبت إلى الحمام، خلعت ملابسي، رقدت في البانيو، لم أفتح الماء. أخذت الشفرة من باكو الأمواس الذي تركه حسن في صندوق الأجزخانة البيتي الصغيرة، فوق البانيو. كان حد الموسى على يدي بارداً، ليس حاداً، ليس فيه أيّ ألم. كأنه لم يقطع شيئاً.

كانت – وهي تحكي – تتلمّس عنقها، وتتحسّس جِيدها المنبسط بأصابعها المفردة، وبحركتها المألوفة إلى جانب صدرها تدعكه برفق، دون أن تحسّ ما تفعل.

قالت: أخذت أراقب قطرات الدم تسقط ببطء، على أرضيّة البانيو، وعلى جسمي، قطرة، قطرة، مدوّرة، داكنة، صوتها إذ ترتطم بالبانيو يختلف عن صوتها إذ تسقط على جسمي.

عندما استيقظت وجدت نفسي على السرير، في قميص نوم واسع ونظيف من الدولاب. كان نور الصبح الحارّ يلوح من الصالة، بينما كانت غرفة النوم معتمة مزدحمة بالأثاث ولها رائحة طبّية من صبغة اليود والكولونيا ورائحة أخرى لها طعم الإسبرين، ويدي مرميّة إلى جانبي، مربوطة بالشاش الأبيض، وكأنّها مخدّرة ولكنها تؤلم ذلك الألم الكامن المستتر وراء التخدير. قال لي شريف: لحقتك في آخر لحظة. صدمني صوتك في التليفون. قلت: هناك حاجة غريبة. كان الأولاد نائمين، وفتحت لي نعيمة على الفور. ولحسن الحظ جاءت عليّة من العيادة على الفور، ومعها زجاجة الدم من الثلاجة، وطراز B كمان يا ستي. لم يحسّ أحد تقريباً. كنت نائمة ومطواعة وهادئة جداً في الغيبوبة، وحبّوبة كالمعتاد.

ثم صمتت فجأة، كأنّما سقط أذان الديك على شهرزاد، على غير انتظار، وابتعدت عنه، قليلاً، وهي مع ذلك لَصِقة، وعيناها في أفق داخليّ شاسع وموحش.

عندما انتهت من حكايتها، أخذ يدها برفق، أعطتها له كأنّما دون أن تحسّ، وقلبها على ناحية الكفّ الرَّخصة. وتلمّس الندبة البيضاء الرقيقة، لا تكاد تستبين في بضاضة رسغها السمراء اللدنة، حدّاً رفيعاً وصغيراً، رفعها إلى فمه، وقبّلها بصمت، وبطء، وطويلاً، يريد أن يبرئها، يريد أن يمحو ما حدث، يلغيه، يحذفه، لم يحدث قط.

طوّقت عنقه بذراعها الأخرى، وضمّت رأسه، بهدوء، إلى صدرها الوافر الوثير.

قال: الم تكن خطيئتي الأساسية انني لم يغب عني شهود ذاتي في الحب؟ انني لم أنس إسمي قط؟

وكأنما قال: غير صحيح ايضاً. غبت عني، فعرفت الحضور، لأنها لم تغب عني، قط. اين يمكن أن تغيب، وذكرى قبلتها في فمي، متجسّدة، محسوسة، ما زالت، لا تريم.

«فما حال في سرّي لغيرك خاطري،

ولا قال الاّ في هواك لساني»

قال لها: أتذكرين يوم سافرت معك إلى الإسكندرية؟ قلت لي يومها إنك مسافرة في ديزل الساعة اثنين. سألتك هل حجزتِ؟ ما رقم مقعدك؟ وعندما جئت وجدتِني في المقعد المجاور لك – أكنتِ قد حدست ما غايتي من سؤالي؟ – وشربنا بيرة، ودار راسي قليلاً من الشرب ومن حضورك، وزنا انظر من زجاج نافذة الديزل السميك، من داخل واحة التكييف، من داخل نشوة خفيفة، وأرى الغيطان والأشجار والترع التي وجدتها كأنها مرسومة بالباستيل الجاف، كأنها فقدْت نضارتها ورفيق خضرتها اليانعة، ولم تبق إلا صورةُ تعاستها وبلاويها، من الدودة إلى المبيد، من البلهارسيا إلى موت طيور أبيس، من جشع ناسها وفقرهم.

قال لها: عندما نزلت في سيدي جابر، سلّمت عليّ وبقيت أنا لغاية محطة مصر، لم تعطني عنواناً ولا رقم تليفون ولا شيء، كأنّها قطيعة قصيرة، تستسلف انقطاعات، وفراقات كثيرة.

قالت وهي تنظر إليه بما يشبه القسوة: لا. لا أذكر.

قالت: أنا سعيدة لأنك جئت.

ثم أخذت يده لتقبّلها، بحركتها القديمة القديمة، بغاية الهدوء، وغاية الحنان. هل كان قد نسي هذه الإيماءة منها التي يهبط لها قلبه ويضطرب، كل مرّة؟

قال: لم أنس، لحظة واحدة، عينيك.

قالت: لحسن الحظ، عيناي باقيتان. مهما تغيّرت أنا، مهما تقلّبت بي الأيام.

قال: أنتِ تتحدّين الزمن.

قالت: اللّه يخليك. هذا فقط لأنك تحبّني. الأشياء الكبيرة هي التي أتحدّاها. أما الزمن؟ من يتحدّاه؟

قال: أنتِ. أما أنا فإنني أذهب.

قالت: أنت تبقى كما أنت، على راحتك. مهما حدث.

ثم قالت له: تعالَ. تعالَ إلى حضني.

فكّت الشريط الأزرق الرفيع الذي كان يربط شعرها الغزير، أيامها كانت تراسله، فانسدل على كتفيها المدملجتين السمراوين، أمواجه السوداء عبقة بحرافتها، كانت فيه خيوط رمادية بيضاء وقليلة غارقة في غمار تهدّلات الشعر الجميل.

قالت له: أريدك أن تَقْبلني، كما أنا، عندما أشيخ، واشيب، ويصبح شعري كتّانة بيضاء.

قال: أنتِ جنونيّة.

ثم قال: اقبلك وأُقبّلك في كل أحوالك.

قالت كأنّها ترد مجاملة، لا تتقبّل عبادة: الله يخلّيك.

فهل وقعت القطيعة؟ وانطوت الصفحة؟

ما أظن انطواءها واقعٌ أبداً.

قالت له: لا تنس أن الجنس مع ساحرةٍ أمر لا تؤمَن عواقبه.

قال: تقولين لي أنا؟ اسأليني، أنا، أدلّك.

ثم قال: هذا الحب من جنس القتلة. دؤوب، مصمّم، لامع العينين، صلب لا يرجع عن نيّته. فإذا كان قد انتوى أن يدمّر، ألم يقضِ مني لبانته؟

خيط الزمنَ المتّصل هو الجحيم. كَسْرةُ وعدٌ مراوغ بالجنة.

التي لا تأتي أبداً. لأنّها سطعت ثم انطفأت.

لكنه لا ينكسر.

انتصبت مئذنةُ جامع سنجر الجاولي، من أمام نافذتها العالية، ترتفع قاعدة المنارة الحجرية المربعة، في شهوة الخلود والتوحّد. شبابيكها ذات عقود مختلفة المنازع جياشة الأشواق، يمسّد شعرها المتهدّل بيديه ويحسّ تدوير نهدها على صدره، حيرة متّصلة وأسئلة لا نهاية لها، ضوء النهار يخايل العتمة الرقيقة الغضّة، لا يجلو خضرتها الهادئة المترقرقة، بابها معقود، علام ينفتح؟ إلى مثوى فناء أخير أم هو بقاء لا دثور فيه؟ تسلم المنارة تربيع صدرها المليء إلى مثمنها المتصاعد، هضيم الخصر، يخترق السماء، تخترقه، عليه خوذته المضلعة المستندة إلى ترسها المكين، وتحتها – معها – الإيوانات والخلوات والمنادر والمقاصير ونوافذ الحجر المفرّغ، بزخارفها الموشار كالدانتيلا في جسد دافئ بضّ مدّ الخشب الأسمر، أفاريز مفوّفة هفهافة تحت القبّتين الصلبتين لَدنَتي اللحم، تصبو يداه إذ تحيطان الآن باستدارتهما أن تمسكا باللانهائية.

في المساء، قبل أن يسافر في مهمةٍ طويلة للإقامة في الأقصر وتفقُّد مقابر البرّ الغربي، قالت له: لا أملك أن أتحلّل من وعد قطعته على نفسي من زمن، قبل أن تجيء. كنت وعدت صَفِيّ الحجّار أن أتعشى معه الليلة. هل أحتاج أن أشرح لك مثل هذا الموقف؟ لا أستطيع أن أتّصل به وأعتذر، لأنه سيأتي من السفر هذا السبب خصيصاً. أنا طبعاً كما قد تتصوّر لا أهجرك الليلة ولا حاجة. لا تذهب بك هواجسك كل مذهب، كعادتك.

ضحك في غير اقتناع، وقضى ساعات تعيسة تحت نباتات الظل الليليّة، وضوء المساء يتسلّل من المشربية إذ تتبدى من خروبها الدقيقة نجومٌ باهتة لا معنى لها. يحاول أن يستمع إلى موسيقى دينية من مونتفردي، فلا يجد في نفسه اهتزازاً ولا استجابة، وحتى دقات موسيقى الجاز التي جرّبها بعد ذلك بدت له مملّة رتيبة الصخب لا تغمر قلقاً ولا تبدّد مضضاً. كانت عقودها النحاسية والكهرمان وحلقاتها المدوّرة الكبيرة وأساورها المعدنية والفضية السميكة – كأنّها خلاخيل – ملقاةٌ كلها بإهمال مدروس على الشكمجيّة المنقوشة بنباتات وتفريعات داكنة وقديمة، تبدو فجأة لا حياة فيها، هي التي كانت تسري فيها من قبل أنفاسٌ قوية، حيّة، من حرارة نسويّتها وحسيّتها.

وعندما جاءت بعد منتصف الليل، متفتحة متضرجة منفعلة من الأكل والجوّ الفخم والنبيذ المنتقى بخبرة، في مطعم لاكافيتيير الخاص الغالي الذي لا يتعشى فيه إلا الصفوة كأنّهم من أصدقاء «الشيف» الفرنسي» المدوّر الوجه الذي يفيض بالترحيب لزبائنه المختارين بعناية، من نزلاء الميريديان أو من ضيوفه على السواء.

فهل كانت كآبته ليلتها، وغضبه، وتوتّره، هو سرّ فشل تلك الليلة الأخيرة؟ أم كان ذلك منه – على نحو لا يقصده بل لعله لم يدركه إلا متأخراً جداً – على سبيل العقاب الذي ينزل بها – وبنفسه أساساً – لأنه سمح لها أن تتركه ليلتها، أياً كان السبب؟

استيقظ من نومته القلقة، كأنه مخدّر – نصف يَقِظ ونصف غافٍ لا يملك في غفوته شيئاً من أمر نفسه، يبحر من موج الليل المضطرب على قارب مهتزّ لا يعرف كيف يوجِّه دفّته.

كان عليه أن يسافر بعد ساعة أو نحوها، وكانت طقوس اليقظة في الفجر ملهوجة وعلى غير مطواعة في الوقت نفسه. قالت له: صحّ النوم. وجدها يَقِظة منذ فترة، كما هو واضح، تفعل أشياء في البيت. وكأنما تأخذ عليه أنه نام، وهجرها. هو هذه المرة، لاذ بنومه وأوى إليه. ألم تعرف – هي – وحشته في غيابها؟ فإنه الآن هو الذي يغيب عنها، عن غير عمد أم عن قصد مكنون؟ – فلعلها تعرف وحشتها في

غيابه، أو شيئاً من هذا القبيل.

جاء خليل عبد الشهيد يزورها في شقّتها في شارع الشعري اليمانية، على غير ميعاد، فاجأهما في تبذلهما المعتاد إذ يكونان معاً، وكانت هذه الزيارات المفاجئة شيئاً لا يكاد يحدث معها، لأنها لا بد أن تنظم وقتها وترتّب أعمالها، وتنسّق بين رجالها أيضاً.

لكنه جاء مستنداً ربما إلى تاريخ طويل منذ ١٩٥٩، عندما قامت هي بدور أساسيّ في تهريب خليل عبد الشهيد من مصر، حتى لا يقع في قبضة رجال صلاح نصر في تلك الليلة المشهودة ليلة ٣١ ديسمبر ١٩٥٨، مع الآلاف الذين وقعوا في أسره عندئذٍ.

كانت قد لبست الملاية اللفّ، وحملته على أن يرتدي زيّ الصيادين في بور سعيد، الصديري المخطّط بأزراره الكثيرة المدوّرة الصغيرة المتلاحقة، والسروال الواسع، وجاكته كاكي من مخلّفات الأورنس الإنجليزي، وبذلك استطاع أن يخرج في مركب صيد إلى ميناء صيدا، نزل منه إلى القلعة الأثرية، ومن بيروت بالطائرة إلى باريس، حيث طَلَب، ومُنح، حق اللجوء السياسي، كانت معه زوراقه وجواز سفره ودولاراته القليلة الضرورية. واشتغل في باريس، وألّف الكتب في الثناء على جمال عبد الناصر ونظامه العسكري الوطني التقدمي.

قال: هل لذلك أعطى نفسه الحق في أن يخبط على بابها دون ميعاد، حينما كانت في مباذلها نصف عارية، وكنت معها؟ أشارت إليّ فخطفت ملابسي الملقاة في فوضاها على الأرض، ودخلت غرفة النوم، ونسيت ساعتي على مسند الصوفا العتيدة، تحت صورة المولد بألوانها الحمراء المشرقة الحافلة.

قال لها: هل تصدّقين ما حدث؟ لم أكن أتصوّر! غفوت بالفعل، وأنا أسمع من وراء باب غرفة النوم المغلق عليّ، همهمةَ الصوت المتراوح في حديثكما، صوتَه الأخنّ المرتفع قليلاً وصوتَك الناعمَ المهدهد الفيّاض بالأنوثة. كان الديك الأحمر فوقي فاتحاً منقارَه بلا صوت. أفقتُ على صوت باب الشقة يصطفق مغلقاً. هل سمعتك تقولين: إلى اللقاء إذن، خلّنا على اتصال. طبعاً، ضروري إلى اللقاء.

قالت له: أين ساعتك؟

قال: يا خبر!

قالت: وضعتها بسرعة تحت مرتبة الصوفا. لكنه كان قد رآها. ولم يقل شيئاً.

قالت: صحَّ النوم!

هل كان في صوتها إثارة، هبوة، من عتبٍ، أو مرارة وهي تعطيه ساعته المنسية؟

قالت له: نعم. لم يسأل، ولم يكن في نيّتي على أي حال أن أشرح أو أبرّر شيئاً.

كابوسٌ صباحيٌ تيقّظ عليه، وهو يتفصّد عرقاً رطباً ولزجاً. ياه، ألم يبرأ بعد من هذا التوتّر الجسميّ الذي يرفضّ له عرقُه كلّما ألمّتْ به محنةٌ روحية؟

قال لنفس، أم هل كان كابوس هو الذي يقول:

ما صورتي الآن عندها؟ ما صورتي دائماً عندها؟ كيف رأتني، من قبل، كيف تراني الآن؟ تلك النظرة الإكلينيكية المتفحّصة الصاحية، سطح ثلج مخضّر صقيل، تتأمّله بصمت. ضعيفاً متخاذلاً؟ كاذباً ومخادعاً؟ غادراً نكث بعهده وولّى عنها؟ قَبِلَ منها ما لا يقبله الرجال في بلادنا، البطاركة الذين لا يفهمون من المرأة إلا خضوعَها المطلق وولاءها المطلق؟

أم هل أغوتها صورته القديمة: الهادئ في عزّ الأزمات، المتمكّن، رئيسها في مصلحة الآثار ثم في هيئة الآثار، صاحب أيادٍ في أنه دفعها إلى الأمام - ولو قليلاً - في حياتها العملية، كما كانت تدأب أن تقول إذ تعرّفه لأصدقائها، من قبل؟ المعلّم الذي لعله أعطاها دروساً أو إيضاحات للعناصر الرئيسية - تجاوزتها بعد ذلك بأشواط - في أوليات الترميم وعلاج الآثار الدقيقة المعطوبة واكتشاف الشروخ المهدّدة بالخطر أو الدقيقة المحتملة بلا ضرر حقيقي أو منظور، على السواء في معمار الأعمدة والهياكل؟ صورة الصادق الصدوق الذي لا يتوانى عن الاعتراف بالخطأ، على الملأ، دون تردّد، حتى يتسنّى تداركه؟ صورة الواثق، الصامت حتى إذا انضوت إلى رئيس الهيئة في حملته الخفيفة عليه، لا ينبس هو بحرف حتى لا ينقاصها، ومن ثَمّ لا يحرجها، رعايةً منه لها وحيطةً عليها، بينما لا يتورّع في أن يقارع رئيس الهيئة الحجة بالحجة، بوضوح وتصميم؟

أيةُ صورة بقيت له الآن عندها؟

هل بقيت له أية صورة؟

في ذلك الصباح، وحتى يطرد شبح الكابوس، راح يصغي إلى البيوني: كونشيرتو للترومبيت والأوركسترا. ولكنّ السؤال لم يتوقّف، وأنْ كان قد تراجع قليلاً إلى كُمُونٍ مؤقت. يعرف أنه يظل متربصاً به، يترصّده، مثلَ مسخٍ حيوانيّ لا تغمض عيناه.